

الإِلْفَةُ وَالْمَعَاجِزُ الْكُوْنِيَّةُ تَتَحَدَّى إِلَّا إِنْسَانٌ



.. كيـفـما التـفتـ، فـإـنـكـ تـجـدـ نوعـاـ مـتـنـاسـقاـ بـالـكـامـلـ بيـنـ قـوـانـينـ الـكـونـ وـالـوـجـودـ [الـإـلـفـةـ الـكـوـنـيـةـ]
وـالـخـدـمـةـ الـوـجـودـيـةـ] ..

بـدـءـاـً مـنـ النـمـلـةـ، وـصـوـلاـً إـلـىـ إـلـاـنـسـانـ، اـنـتـهـاءـاـً بـالـمـجـرـاتـ. كـلـًـ مـنـهـاـ يـقـومـ عـلـىـ تـرـكـيـبـةـ قـاـنـونـيـةـ
أـعـجزـتـ الـعـقـولـ..!

وـمـعـ طـوـرـ التـقـنـيـةـ فـإـنـ إـلـاـنـسـانـ يـشـهـدـ مـطـاـهـرـ هـائـلـةـ مـنـ الـأـسـرـارـ الـتـيـ تـسـبـحـ فـيـ بـطـنـ هـذـاـ الـكـونـ..
هـلـ تـعـلـمـ أـنـ الـكـونـ مـعـقـدـ وـمـذـهـلـ جـدـاـً، وـوـاسـعـ، وـهـوـ مـاـ زـالـ يـتـسـعـ..!

هـلـ تـعـلـمـ أـنـّـاـ مـاـ زـلـنـاـ نـسـبـحـ بـشـكـلـ اـنـفـلـاشـيـ معـ بـاـقـيـ الـكـواـكـبـ وـالـنـجـومـ وـالـمـجـرـاتـ، وـعـلـىـ نـحـوـ ا~تسـاعـيـ
مـعـ الدـفـعـ النـوـعـيـ الـذـيـ يـرـمـيـ بـنـاـ فـيـ بـطـنـ هـذـاـ الـكـونـ، وـلـاـ نـدـرـيـ إـلـىـ أـيـنـ، سـوـىـ نـعـلـمـ أـنـ هـذـاـ الـفـعـلـ يـتـمـ
عـلـىـ نـحـوـ دـقـيقـ وـمـوـزـوـنـ وـإـبـقـاعـ مـدـهـشـ..!

مـَنـ يـقـوـدـ هـذـهـ الـقـدـرـةـ الـهـائـلـةـ وـيـقـيمـ الـكـونـ عـلـىـ هـذـاـ الضـبـطـ الـذـيـ أـذـهـلـ الـعـقـولـ..؟ دـارـونـ، أـمـ شـكـسـبـيرـ،
أـمـ سـارـتـرـ..!

لـقـدـ أـسـاءـ إـلـاـنـسـانـ إـلـىـ نـفـسـهـ كـثـيرـاـ حـيـنـ جـدـ..
هـذـاـ إـلـاـنـسـانـ الـذـيـ يـعـرـضـ عـلـىـ إـنـهـ عـلـمـقـ العـقـلـ وـالـذـكـاءـ، يـعـرـضـ عـلـىـ أـنـ بـابـ خـشـبـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـتـرـكـبـ مـنـ

ذاته، في حين يرى أن هذا الكون المذهل يمكن أن يتولّد عبر صدفة جنون أو عاصفة عبئية..! أو بالأحرى، كما قال بعض المفكّرِين الجادين: ليس من الضروري أن نعرف كيف تركّب ومن ركبه ولماذا..!

في حين نفس هذا المُفكّر حين تم الإعلان عن بعض الأعاصير كان أوّل من هرب، كان من أكثر الناس إلحاداً عن الإعصار وعن وجهته، وعن قوّته، وعن نسبة المخاطر، وأين، وكيف، وما هي الإمكانيات التي تحول دون ضرره..!

لاحظ.. يهمُهُ أن يحمي نفسه من المخاطر، أن يضمن النجاة، أن يعرف العدو الإعقاري القادر.. لكن مسار الحياة، خريطة الوجود، وهي الأعمق والأعظم باعترافه، وهي الأهم لحياته، يُصرُّ على الإبعاد عنها، لأنّه كما قال: الموتُ يخيفه..! أليس الإعصار يخيفه..!

ألا يجب أن نعرف طبيعة الأشياء، أن نعرف مسار الحياة والموت، والقوانين الحاكمة على مسيرنا ووجودنا..

ألا يجب علينا أن نتعلمَّق في فهم مفردات خطواتنا، ولغة القوانين الكونية، خاصة إنَّ الكون بما فيه يؤكد لنا إنَّ ربَّ الكون، ربَّ حكيمٌ، ربَّ رؤوف قادر، أبداً ليس عبئياً، رب سخر كل شيءٍ لخلقه البشر، ربَّ عطوف فعلاً، ربَّ لا يمكنه وصفه إلا بالرحمن الرحيم.

ألا يستحقُّ هذا الربُّ العظيمُ أن نشكره، أن نتوقَّ إلى رضاه، أن نستمطر رحمته..!
لقد جد كثيرٌ من الناس..! في حين الكون، بكلِّ ما فيه، الوجود بكلِّ ما ينطوي عليه: يخشُّ في محراب عظمة الله تعالى..!

ولقد لفت نظري قول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّرُّ وَابْنُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهَنَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) (الحج / 18).

.. لقد خانَ كثيرٌ من البشر أمانة الله فيهم، خانوا جادين، انحرفوا لاهتين، كفروا معاندين، رغم ضعفهم، عاندوا شريعة الله بحدِّها! في حين لا يملكون لأنفسهم نفعاً أو ضرراً.

يقول الله تعالى: (إِنَّمَا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقُونَ مِنْهَا وَحَمَلُهَا إِنْسَانٌ إِنَّمَا كَانَ طَلُومًا جَهُولاً) (الأحزاب / 72).

لقد خانَ كثيرٌ منبني آدم خيانةً عظيمة، فشلوا في تحقيق الأمانة الضرورية في لوح الخلق وغايتها. ومع أنّهم يفكّرون إلغاراً مذهلة في كُنه الكون، ومع هذا، يعرضون عنها كآية..!

ومن طريف ما قرأت، أن جماعاتٍ قيل أنهم من المفكّرِين كانوا يصرُّون على ان قطع المسافات من أي طاقة كان لا يمكن أن يتم إلا وفق قاعدة الحسّ البشري ومقاييسه..! [هؤلاء أصحاب المذهب الحسي].

وحين تم اكتشاف سرعة الضوء انبهروا، فأعلنوا أنّ هذا سحرٌ أسطوري..! ومع جهودهم هذا، اضطروا أن يتعاملوا مع هذه الحقائق كواقع فعلي، لكنّهم أمرّوا على إعطاءها تفسيراً سحرياً..!
أمام لوح هذه الحقائق، ألا يجب علينا أن نلتفت إلى بيئتنا الكونية، إلى الغايات الوجودية، إلى الإعجازات المدهشة، إلى ما تعنيه هذه اللغات المترجمة على صفحات السماء..!
 خاصة أننا أمام كونٍ هائلٍ بـإلاتٍ ساع، بل مجرّتنا التي تتبع إليها تشكيل مساحةً مدهشة من الإتساع. فالضوء الذي يقطع المجموعة الشمسية في وحدات تقريبيةٍ من الساعات يتطلب زمناً قد يصل إلى "90.000 سنة" حتى يصل إلى ما بين أقصى طرفيٍّ مجموعة النجوم الأكثر تكاثفاً التي تكون مجرتنا.. .

كما يجب أن نعلم أنّ هذه المجرّة رغم اتساعها الكبير والمذهل، ما هي إلا عنصر صغير جدّاً من السماء، حيث توجد خارج مجرّتنا تكتلات ضخمة من النجوم هي مماثلة لها وأكبر منها.. .
 حين تم تطوير تلسكوب جبل ويلسون بالولايات المتحدة، ورأى العلماء الكون ضمن حقائق الرؤية، انهشوا، ذهلو، انصعقاً أمام عظمة الكون. وقد سجّل العديد منهم ملاحظاتهم أمام تلك اللحظة، ما من واحدٍ إلا أقرَّ بنوعٍ عجيب من الرهبة التي تؤكّد طابع العظمة في جانب آخر تعالى.
 في تلك اللحظات شاهد الإنسانُ بشكلٍ حسّيٍ جانباً من السماوات التي أدهشت عقله، فاللتفتَ إلى نفسه التفاة العاجز الذليل.!

المصدر: كتاب فلسفة الحياة